البداية.. مشهد من التاريخ

كان يا ما كان، يا سادة يا كرام، وما يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام، الزمان كان غير الزمان، والمكان مش نفس المكان، ورغم إننا رجعنا بالتاريخ ألف عام، كان الحال نفس الحال، بلاد غاب عنها العدل بين الناس، وساد فيها قانون الغاب، عم الفساد بين الرعية، وانتشر بين الجميع الرشوة والمحسوبية، أتغيرت الحضارة إلي ثقافة عشوائية، وانتشر بين الشباب لُغة السُباب.

داخل مخدعه المُطل علي باحة قصره الأسطوري، وقف الملك شهريار بالقرب من الشرفة شارداً، يراقب بعينية بضع نجوم متلألئة، وبدر مُضيء في كبد السماء، شع ضيائهم الخافت الأرضِ، فلاحت البيوت وشوارع المُلك وقد اكتست سواداً باهتاً، عقد شهريار حاجبيه، بدا حزيناً عابث الوجه، خرجت زفرة حارة رغماً عنه من بين شفتين مزمومتين، لمسة حانية علي كتفه الأيمن جعله يسترد بعض من وعيه الغائب، التفت ليجد زوجته الجميلة، فقال باسماً: شهرزاد.

لمعت عيني شهرزاد جذلاً، اتسعت ابتسامتها الساحرة حتي بدت نواجذها، توردت وجنتيها خجلاً، فأطلقت تنهيدة حارة ثم قالت: تحية لك يا مليكي أقطفها لك من بساتين حُبي، فأطلق شهريار ضحكة جذلة، ثم أمسك يديها متجهاً إلي الفراش ليجلسا علي طرفه مردداً: وتحية لكِ يا مليكتي في أبهي حُلاكي وأبهى جلاليكي، فاقتربت منه شهرزاد واضعة يدها علي راحته مستفسرة: فيما كنت تفكر يا مليكي.

أمسك شهريار عن الكلام، أرخي جفنا عينيه، أطرق رأسه أرضاً، سيطر الحزن على قسمات وجهه الشاحب، أضحى أكبر وأكبر مما يبدو، علا صوت شهيقه وزفيره، ثم قال بصوت يقطر دماً: كُنت أفكر فيما يصنع الناس بالناس.. كُنت أفكر في المعركة الأبدية.. معركة الخير والشر.. المعركة التي قامت منذ قامت الحياة، منذ قتل قابيل أخاه، ثم التفت إلي شهرزاد بعيون ذائغة متسائلاً: ماذا تريدين بي يا شهرزاد، فأجابته قائلةُ بصوت هامس: خيراً يا مولاى.

نهض شهريار من مجلسه، اتجه إلي شرفة مخدعه، فدنت منه شهرزاد متنحنحة، وقبل أن تفتح فمها، أشار شهريار إلي ما خارج الشرفة قائلاً: لقد ظللتي تقدمين لي في كل ليلة أنماطاً وألواناً من الناس والحياة، حتي حاشدتي الدنيا كلها في هذا

المخدع الصغير، فما قصدك مما حكيتِ لي من حكايات، أطلقت شهرزاد ضحكة طويلة متميعة قبل أن تقول: أنا.. لا شيء أكثر من أن أسليكَ وأن أملئ لياليكَ، عقد شهريار حاجبيه وقد شكل الغضب تقاسيم وجهة الذي راح يهزه يميناً ويساراً قائلاً: لا يا شهرزاد لا.. إنك تلدغين شعوري بما تعرضينه علي من ألوان الحياة والناس.. إنك تتكلمين عن الظلم أحياناً كأنك لا تعنين سوايا.....

تحركت شهرزاد إلي داخل المخدع الملكي، انتحت ركناً يبدو مظلماً بعض الشيء، ثم جلست علي أحد الأرائك الذهبية قبل أن تطلق ضحكة جذلة وكأنها طفلة سمعت طرفة لأول مرة، اعتدلت ثم قالت خبثاً: أنا.. آلا تري يا مليكي أن في المعاريض ما يشفي؟، لم يفهم شهرزاد ما تعنيه زوجته، فعقد حاجبيه مفكراً ثم التفت إليها قائلاً، ماذا تقصدين؟!.. فأجابته وقد ضاقت حدقتي عينيها قائلةٌ: عندما يكتشف الإنسان حقيقة نفسه بنفسه، فهيهات هيهات أن يضل السبيل يا مليكي!!!!

تذكرون هذا المشهد جيداً،، حينما كُنا صغار، منذ أكثر من ثلاثة عقود تفنن الكبير أحمد بهجت، أحد أبرز كُتاب الصحافة في مصر، في كتابة أكثر مشاهد قصته «ألف ليلة وليلة» روعة، كان أخر حوار دار بين شهريار وزوجته شهرزاد، وجاء علي لسان بطلي

الحدوتة العظيمين حسين فهمي ونجلاء فتحي، كُنا صغار لم نفهم ما تعنيه شهرزاد من حديث مع مليكها، لم نعى أن ما قالته لم يكن سوي عين الحقيقة، واليوم وقد صرنا رجال، أدركنا أن هذا الملك لو كان في رأسه ذرة من عقل، لأدرك ما كانت تقصده تلك الزوجة الوفية.

"عندما يكتشف الإنسان حقيقة نفسه بنفسه.. فهيهات هيهات أن يضل السبيل".. تأملوا تلك العبارة جيداً، أسالوا أنفسكم الأن، ماذا لو توهمنا أن أصحاب الجلاله والفخامة والسمو كانوا قد أدركوا تلك العبارة، ما وصلنا ليوم تشرذمت فيه الأمة فصارت ضعيفة مستباحة، تُراق علي أرضة الدماء فتجري أنهارا، ونري الإرهاب ينخر في جسده كما ينخر السوس في النخيلَ، وفساد عفن أجبر شبابه علي الفرار ليغرق في بحاره، وشيوخ ونساء لم يجدوا سوي المقابر إيواءٌ، وأطفال وجدوا في الشوارع مسكناً، ورجال حُرمت الراحة أبدانهم.

●●●